برنامج الدَّرس الواحد السادس
الدَّرس (١٠)، ١٤٢٨

سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

تطريز

فضيلة الشيخ صالح بن عبد الله العصيمي
حفظه الله تعالى

فائدة تشتمل على

نبذة من آداب المعلمين والمتعلمين

للعلامة

عبد الرحمن بن ناصر ابن سعدي

المتوفى سنة ١٣٧٦ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (الأولىٰ)

الشيخ لم يراجع التفريغ

[السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّنا، وأشهد أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد؛ فهذا هو **الدّرس العاشر** من برنامج **الدرس الواحد السادس**، والكتاب المقروء فيه: هو «**فائدة تشتمل علىٰ نبذة من آداب المعلمين والمتعلمين**» للعلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقبل الشروع في إقرائه لابد من ذكر مقدمتين اثنتين:

المقدِّمة الأولىٰ: التعريف بالمصنِّف؛ وتنتظم في ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: جرُّ نسبه؛ هو الشيخ العلامة القدوة عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السِّعدي -بكسر السّين المشدّدة- كما هو مسموع من تلاميذه وأهل بيته، يُكنىٰ بأبي عبد الله، ويُعرفُ بابن سِعدي.

المقصد الثاني: تاريخ مولده؛ ولِدَ في الثاني عشر من محرم الحرام سنة سبعٍ بعد الثلاثمائة والألف (١٣٠٧).

المقصد الثالث: تاريخ وفاته؛ توفِّي قبل طلوع فجر يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادىٰ الآخرة سنة ستٍّ وسبعين بعد الثلاثمائة والألف (١٣٧٦)، وله من العُمر] تسعٌ وستُّون سنة.

المُقدِّمة الثانية: التعريف بالمصنَّف؛ وتنتظم في ثلاثة مقاصد أيضًا:

المقصد الأول: تحقيقُ عنوانه؛ كُتب بخط المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في أول هذه الرسالة «**فائدة تشتمل علىٰ نبذةٍ من آداب المعلمين والمتعلمين**»، هذا هو الاسم المثبت بخط المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

المقصد الثاني: بيان موضوعه؛ موضوع هذا المُصَنِّف اللطيف الإشارة إلىٰ جملةٍ حسنة من الآداب المتعلقة بالمعلمين والمتعلمين.

المقصد الثالث: توضيح منهجه؛ جاءت هذه الرسالة منسوجة في سياقٍ متتابعٍ، فلم يفصل بين مقاصدها بعبارات تُرشد إلىٰ مقصود كل جملةٍ منها من الآداب، ويظهر فيها بجلاء نفس المرشد المعاني لصنعة التعليم، وإذا كتب كاتب في صنعةٍ يتعاطاها، كان كلامه أوفق وأنفع من كلام غيره.

فالمصنفون في آداب الطلب وحقوق المعلمين والمتعلمين أكملهم بيانًا، وأنفعهم نُصحًا هم الممارسون لهذه الصنعة، أما من لم يمُارس هذه الصنعة فمهما بلغ علمه فإنه لا يبلغ في النفع مبلغ الآخر؛ لأن من جرب التَّعليم ومارس طرائق الإفهام والتفهيم أجدر أن يقف علىٰ الأنفع، فالانتفاع بصحبة مثله في الإرشاد والبيان والإيضاح أكثر من الانتفاع بصحبة من لم يُمارس.

قال المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (١)

يتعين علىٰ أهل العلم من المعلِّمين والمتعلمين أن يجعلوا أساس أمرهم؛ الذي يبنون عليه حركاتهم وسكناتهم الإخلاص الكامل، والتقرب إلىٰ الله بهذه العبادة، التي هي أجل العبادات وأكملها وأنفعها وأعمها، ويتفقّدوا هذا الأصل الجليل في كلِّ دقيقٍ من أمرهم وجليل.

فإن درسوا أو دارسوا، أو بحثوا أو ناظروا، أو أسمعوا أو استمعوا، أو كتبوا أو حفظوا، أو كرّروا دروسهم الخاصة، أو راجعوا عليها أو علىٰ غيرها الكتب الأخرىٰ، أو جلسوا مجلس علم، أو نقلوا أقدامهم لمجالس العلم، أو اشتروا كُتبًا أو ما يُعين علىٰ العلم= كان الإخلاص لله واحتساب أجره وثوابِه مُلازمًا لهم، ليصير اشتغالُهم كلُّه قُربةً وطاعةً وسيرًا إلىٰ الله وإلىٰ كرامته، وليتحقَّقوا بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليتحققوا بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلىٰ الجنة**».

فكلُّ طريقٍ حسِّيّ أو معنوي يسلكه أهل العلم يُعين علىٰ العلم أو يُحصله فإنه داخل في هذا.

بيّن المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة من الآداب التي تلزم المعلمين والمتعلمين طلب الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في حركاتهم وسكناتهم، وقد تقدَّم بيان أن **الإخلاص هو تصفية القلب من قصد غير الله عَزَّوَجَلَّ**، ونظمنا ذلك بقولنا:

إخلاصـــنا تصـــفية للقلـــب مـــن ... قصـــدٍ لغيـــر الله فـــاحفظ يـــا فطـــن

والإخلاص هو أساس الأعمال الصالحة، وإنّما يُدرِك الإنسان في العلوم والأعمال علىٰ قدر نيته، فإذا كانت النية صالحةً حسنة كان المدرَك قويًا، وهذا معنىٰ ما رُوي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «إنما يحفَظُ الرجل علىٰ قدر نيته».

فليس حفظ العلوم بقوة العقول، وجودة الأذهان، وسلامة الأفهام، وإنما تحفظ العلوم وتُثمر في نفس صاحبها بحسب صلاح نيته.

وقد بيّنا فيما سبق أن نية العلم تجمع معانٍ أربعة:

أولها: قصد العبد بطلبه للعلم، وتعليمه للناس رفع الجهل عن نفسه، فإن المتعلم يرفع الجهل عن نفسه. والمعلم يوثِّق هذا الرفع ببث هذا الخير.

---

(١) السنة الإنسان يبدأ بنفسه ثم بغيره إذا دعا لغيره.

وثانيها: رفع الجهل عن غيره من الخلق.

وثالثها: حفظ الشريعة وصيانة الدين من الضياع.

ورابعها: العمل بالعلم.

وضبطنا ذلك ببيتين اثنين هما:

وَنِيَّـةٌ لِلْعِلْـمِ رَفْـعُ الْجَهْـلِ عَـمْ عَـنْ نَفْسِـهِ فَغَيْـرِهِ مِـنَ النَّسَـمْ

وَالثَّالِثُ التَّحْصِينُ لِلْعُلُـومِ مِـنْ ضَـيَاعِهَا وَعَمَـلٌ بِـهِ زُكِـنْ

فإذا اجتمعت هذه المعاني الأربعة في قلب العبد الطالب للعلم فقد تحققت له نية طلب العلم، وهذه النية هي مفتاح سلوك طريق العلم الذي أخبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه يُسهِّل لصاحبه به سلوك طريق الجنة، وكلَّما كان الإخلاص قويًّا، كلما كان السلوك سهلًا، ولذلك فإنَّ المخلصين سيلغون بقليل أعمالهم ما لا يبلغه غيرهم، فعملٌ بنيةٍ صالحة خيرٌ من عملٍ كثيرٍ بلا نيةٍ أو بنيةٍ فاسدة.

ثم بعد هذا يتعيَّن البداءة بالأهم فالأهم من العلوم الشرعية، وما يُعين عليها من علوم العربية، وتفصيل هذه الجملة معروف، وينبغي أن يسلك أقرب طريقٍ يوصل إلىٰ المقصود الذي قصده.

وأن ينتقي من مُصنّفات الفن الذي يشتغل فيه أحسنها وأوضحها، وأكثرها فائدة، ويجعل جلّ همِّه واشتغاله بذلك الكتاب حفظًا عند الإمكان، أو دراسة تكريرٍ بحيث تكون المعاني معقولةً له محفوظة، ثم لا يزال يُكرّر ما مر عليه ويعيده.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة من أدب العلم أنه يتعين علىٰ المتعلم أن يُرتب أخذه للعلوم، ويجعله في مراتب ودرجات، فإن النفس لا تقوىٰ علىٰ العلم دُفعةً واحدة، بل لابد أن تُدرج فيه حتىٰ تبلغ الغاية منه.

وأشار إلىٰ هذا الترتيب بقوله: (البداءة بالأهم فالأهم) وهذا الترتيب الشائع في لسان المتكلمين غلطٌ فإن صوابه حيث أرادوا هذا المعنىٰ أن يُقال: (البداءة بالأهم فالمُهم) فإنَّ المقصود أن يبدأ الإنسان بالأعلىٰ أهميةً، ثم يلتفت إلىٰ ما دونه في الأهمية، فالمقصود هنا التدلِّي من العلو إلىٰ ما دونه، وليس المراد الترقي من الأقل إلىٰ ما هو أعلىٰ منه.

ولهذا يُقال: يبدأ الإنسان بعلوم الاعتقاد والتوحيد، ثم يُتبعها بما يلزمه من علم الأحكام الفقهية، ثم ما يحتاج إليه من معرفة الأحاديث والأذكار النبوية، وهلم جرّا.

وهذا هو الذي قصده المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، والمراد: أن تعرف أن من أدب أخذ العلم أن تُدرج نفسك فيه، وأن تسلك أقرب طريقٍ يوصلك إليه، وأقرب طريقٍ يوصلك إليه هو اشتغالك ما اندرج عليه أهل العلم حفظا وفهمًا، وهذا معنىٰ قوله: (وأن ينتقي من مُصنفات الفن الذي يشتغل فيه أحسنها وأوضحها، وأكثرها فائدة، ويجعل جل همه واشتغاله بذلك الكتاب حفظًا عند الإمكان، أو دراسة تكريرٍ) إلىٰ آخر ما ذكر.

والمبتدئ لا مُكنة له علىٰ أن يتصدر إلىٰ اختيار شيء؛ ولكنه يقتدي بمن سلف، ولهذا كان علماء العراقي يُشيرون إلىٰ كتب ابتداء التعلم بقولهم: كتب الجادَّة، يعني كتب الطريق الذي ينبغي أن يسلكه المتعلم كي يصل إلىٰ مقصوده من العلم، وسبق أن أشرنا إلىٰ أن هذا الأصل جُمع في قول الزَّبيدي في ألفية السند:

فمـا حـوىٰ العلـم في ألـف سـنة شـخصٌ فخـذ مـن كـل فـنٍّ أحسـنه

بحفـظ مـتن جـامعٍ للـراجح تأخـذه علـىٰ مُفيـدٍ ناصـح

فأفاد أن طريق العلم هو حفظ المتون المعتمدة، وتفهم تلك المتون علىٰ يد علماء نصحة راسخين في العلم عارفين بطرائق التعلم.

وعلىٰ المعلم أن ينظر إلىٰ ذهن المتعلم، وقوة استعداده أو ضعفه، فلا يدعُه يشتغل بكتابٍ لا يُناسب حاله؛ فإن هذا من عدم النصح، فإن القليل الذي يفهمه ويعقله خيرٌ من الكثير الذي هو عرضةٌ لعدم الفهم والنسيان.

وكذلك يلقي عليه من التوضيح والتقرير لدرسه بقدر ما يتبع فهمه لإدراكه، ولا يخلط المسائل بعضها ببعض.

ولا ينتقل من نوع من أنواع المسائل إلىٰ نوع آخر حتىٰ يتصور، ويُحقق السابق، فإنه درَك للسابق، وليتوفر فهمه علىٰ اللاحق.

فأما إذا أدخل المسائل بعضها ببعضٍ قبل فهم المتعلِّم فإنه سببٌ لإضاعة الأول وعدم فهم اللاحق، ثم تتزاحم عليه المسائل التي لم يُحققها فيملها، ويضيق عطَنُه عن العود إليها، فلا ينبغي أن يُهمل هذا الأمر.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة من الأدب اللازم للمعلم أن يرعىٰ أذهان المتعلمين،

ويتعرف إلىٰ قوة استعدادهم وألا يُلقي إليهم من العلم ما يدخل علىٰ أفهامهم، فإن القلوب يثقل عليها من العلم ما يثقل، كما أن الأبدان يثقل عليها من الأحمال ما يقل، وقد يستطيع أن يحمل إنسانًا خمسين كيلًا، ولا يستطيع إنسانًا أن يحمل نصف ذلك في الأوزان، وكذلك القلوب فإن منها ما يحمل علمًا كثيرًا، ويقبل فهم صاحبه ما يُلقىٰ إليه من العلم، ومنها ما لا يستطيع ذلك.

فينبغي للمتعلم إذا تصدر التعليم في الناس ألا يُلقي علىٰ العموم إلا ما يُدركه الأصل فيهم، وهو جمهورهم ممن يتوسط فهمه، أما المسائل الغامضة والمشكلات الشديدة، والعلوم التي فيها غموضٌ كالعلوم العقلية، فهذه لا تُدرس لكل أحد، وإنما تصلح لناس دون ناس، وإذا دُرست مثل هذه العلوم لكل أحد وصار المتكلم فيها يتكلم بخطابٍ واحد صار أكثر الحاضرين لا يفهموا هذا، وربما رجع عليهم عدم الفهم بالشك في هذه العلوم والمعارف، أو الإزراء عليها، كمن يحضر مثلًا درسًا مُتقدمًا في علم الحديث فهو لا يميز مراتب أصحاب سفيان الثوري، ومراتب أصحاب سفيان بن عيينة، أو يحضر درسًا في العلوم العقلية، وعلوم المنطق والفلسفة، وهو لم يتوثق بحبلٍ وثيق في معرفة الاعتقاد الصحيح، أو يحضر درسًا في أبواب الملل والنحل والديانات، وهو لم ترسخ قدمه في معرفة عقيدة أهل السنة والجماعة، فينشأ من هذا إما إزراء أولئك علىٰ العلوم وهجرهم لها، فلا يحصل المقصود من التعليم، وإما أن يحصل بسبب ذلك لهم من الغلط في هذه العلوم والهجمة علىٰ العلماء ما لم يكن قبل في نفوسهم، كما يكون عند كثيرٍ من الطلبة إذا تعاطوا الاشتغال بعلم الحديث، وأُخذ في حثهم علىٰ تمييز الصحيح والضعيف، رأيت أن هؤلاء الطلبة ينتهي بهم الأمر إلىٰ الإزراء علىٰ العلماء الكبار، فهم يرون أن عند بعض العلماء الكبار عدم تمييز بين الصحيح والضعيف، والحديث إذ لم يشتغلوا بهذا فيما مضىٰ من أعمالهم.

وإنما وقع عند الناشئ مثل هذا لأن من يحضر عنده يُعظم له هذا الأمر، ويسوق له الأسانيد، ويُبين له العلل فيظن هذا أن هذا هو العلم، فلا يراه عند بعض العلماء الأكابر، فيُحجم عن الانتفاع بعلومهم فيفوته علمٌ كثير، وربما حمله أيضًا علىٰ تتبع هذا الأمر، فصرفه عما هو أنفع منه.

وقد جربنا هذا فيما مضىٰ فإن مبادئ التدريس كان المعلم فيها كان يذكر فيها الأسانيد، فرأىٰ أن بعض الطلبة صار همهم فقط حفظ الأسانيد، فصار عنايتهم عن المعاني، فتجده في درس الاعتقاد يحفظ أسانيد الاعتقاد، ولا يضبط مسائل الاعتقاد، فصار السلامة لهم حملهم علىٰ الأنفع لهم.

وقد سمعت في هذا عدد أذكر أن بعض صغار الطلبة يريد أن يحفظ الأربعين النووية فهاتفني كي أدله

علىٰ كتاب تُذكر فيه أسانيد الأربعين النووية، وهو لم يحفظ بعد متون هذه الأحاديث، ومع ذلك يتجرأ علىٰ طلب شيء غيره أولىٰ منه، فإذا لم يُراع هذا في التعليم أضر بالطلبة.

وهذا هو الواقع اليوم، فإن أكثر المعلمين لا يلاحظون منفعة الطالب.

ومن علل الشيوخ: الإضرار بالطلبة، وربما سمعت مُعلمًا يبقىٰ درسًا كاملًا في أول شرحه لمتن في بيان معنىٰ بسم الله الرحمن الرحيم، وإذا جاء ذكر الباء استطرد في ذكر جمهور ما أورده ابن هشام في «مغني اللبيب» مما يتعلق بمعاني الباء، وأحكامها. ثم ينتقل بعد ذلك إلىٰ علم رسم القلم في علة إسقاط الألف بعد الباء في بسم الله الرحمن الرحيم، مع كونها ثابتةً في كلمة اسم، التي هي مُدرجة في البسملة، فلا يزال يتمادىٰ به هذا الأمر حتىٰ ينفذ الوقت وهو لم يفرغ من تفسير البسملة.

والجهلة من الطلبة يقولون: عاقل، والعاقلون من الطلبة يقولون: ظالم، لأن الضرر بمثل هذا كبير إذ يفوت عليهم عُمرًا كبيرًا في شيءٍ قليل يمكنهم بعد المكنة في العلم أن يراجعوه في المطولات، وإنما يصلح مثل هذا لقلةٍ من الطلبة انتهوا إلىٰ تحصيل المعارف العالية، أو يكون ذلك العالم قد درَّج أصحابه فلم يزل يترقىٰ بهم من علم إلىٰ علم، ومن طريق إلىٰ طريق حتىٰ يبلغ بهم مثل هذا المنتهىٰ.

أما أن يكون هذا طريقًا عامًّا لتعليم الناس، ففي هذا إضرار بهم، ولذلك لم يكن من طريقة العلماء في هذه البلاد لم يكن من طريقتهم تدريس المطولات لكل أحد؛ بل كانت هذه المطولات ربما لا يحضرها إلا أربعة، كما كان هذا في بعض مجالس العلامة محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، والمقصود أن الواجب علىٰ المعلم هو أن يلاحظ استعداد الطلبة، ولا يطرح عليهم من المسائل إلا ما تقبله عقولهم في الجملة.

وينبغي عليه كذلك أن يجتهد في ترقية أفهامهم إلىٰ التحقيق والفهم، فليس المقصود من حضور المجالس مُجرّد أن يكون الطالب وعاءً لما يُلقىٰ إليه، بل المقصود عند العقلاء من المعلِّمين أن يترقىٰ هذا الطالب إلىٰ رياضةٍ ذهنية يفهم بها العلم، فإنه إذا تمهر في هذه الرياضة الذهنية استطاع عقلُه أن يقبل العلوم، وكما أنه للأبدان رياضة فإنه للعقول رياضة، ومن ميادين رياضة العقول مجالس العلم إذا أحسن المعلم التصرُّف فيها.

وعلىٰ المعلم النصح للمتعلم بكل ما يقدر عليه من التعليم، والصبر علىٰ عدم إدراكه، وعلىٰ عدم أدبه، وجفائه، مع شدة حِرصه علىٰ ما يقوِّمه ويُهذبه ويحسن أدبه؛ لأن المتعلم له حقٌّ علىٰ المعلم،

حيث أقبل علىٰ الاشتغال بالعلم الذي ينفعه وينفع الناس، وحيث توجه للمعلِّم دون غيره، وحيث كان ما يحمله من العلم هو عين بضاعة المعلم، فيحفظها وينمِّيها، ويطلب بها المكاسب الرابحة، فهو الولد الحقيقي للمعلم الوارث له، قال تعالىٰ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم]. والمراد: وراثة العلم والحكمة.

فالمعلم مُثابٌ مأجورٌ علىٰ نفس تعليمه، سواءً فهَّم أو لم يفهم، فإذا فَهِم ما علَّمه، وانتفع به بنفسه، ونفع غيره، كان أجرًا جاريًا للمعلم ما دام ذلك النفع متسلسلًا متصلًا.

وهذه تجارة بمثلها يتنافس الموفّقون.

فعلىٰ المعلم أن يسعىٰ سعيًا شديدًا في إيجاد هذه التجارة وتنميتها، فهي من عمله، وآثار عمله؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس:١٢]، فما قدموا: ما باشروا عمله.

وآثارهم: ما ترتب علىٰ أعمالهم من المصالح والمنافع أو ضدها.

وليرغب المتعلم بكل طريق ولا يمله باشتغاله بما يعسر علىٰ فهمه من أنواع العلوم ومفرداتها.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة من الآداب اللازمة للمعلم أن يبذل نُصحه للمتعلمين، وأن يصبر علىٰ عدم إدراكه وجفائه، وما قد يبدر منهم مما يخالف الأدب، وأن يحرص علىٰ تربيتهم بالخير والعلم، وعلىٰ ملء قلوبهم بالهدىٰ والنور، فإن حقيقة الانتصاب لنفع الناس لابد أن تقترن بصبر، فإن العالم وارث النبي، والنبي لا تقوم دعوته إلا بالصبر، ولذلك قيل للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَاصْبِرْ﴾، ثم أُمر بأعلىٰ الصبر فقيل له: ﴿كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وكذلك المُعلم يُقال له: اصبر كما صبر قدوتك محمد محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا لا ينتفع الطالب بمعلمٍ حتىٰ يكون ناصحًا، وقد سبق قول الزبيدي:

..... تأخـــذه علـــىٰ مُفيـــدٍ ناصـــح

ولابد من وجود النصح في حق المُعلم، وإذا لم يتقدم المُعلم إلىٰ المتعلم بنصحه كان في ذلك نوع غش له، أو إهمالٍ لما ينبغي قيامه في قانون العلم، فإذا رأىٰ المُعلم خلةً من مُتعلم، ثم لم يسدّها، أو رأىٰ منه عثرةً، ثم لم يُقمها، أو رأىٰ منه غفلةً ثم لم يُنبهه فإنه غيرُ ناصحٍ له.

وربما يتسلل إلىٰ قلوب بعض المعلمين أن مراعاة هذا في المتعلمين ربما أنتج نُفرتهم منه، واتهامهم

له بالتشدّد، والعاقل يعلم أنه يُراقب في هذا ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يُراقب ما يقول الناس، وحمل الناس علىٰ القانون اللازم، هو حزم وليس تشددًا.

ولكن لرقة الأديان، وضعف النفوس، وموت الهمم صار الناس يسمون هذا تشددًا؛ بل في بعض البلاد لا يحتمل الناس مثل هذه المجالس، ويجعلون تكرار مجلس الدرس في اليوم عدة من مرات من قبيل التكليف بما لا يُطاق عند الأصوليين، فإن بعض الإخوة في بعض البلاد الإسلامية أرادوني في دروسٍ عندهم، وقالوا: لا نُريد إلا درسًا في اليوم، وإذا أكثرت فيكون درسين، فقلت لهم: إني أبقىٰ عندكم مُدة فلا يكن لي إلا هذا العدد، فقالوا: إن الزيادة عليه لا تُحتمل، فإذا كانت نفوس هؤلاء مطبوعةً علىٰ مثل فلا ريب أن يعدوا الحزم في تكثير مجالس العلم أن يعدوه تشددًا.

والمرد في تمييز التشدد والحزم إلىٰ الشرع، فإن الشرع جاء بآدابٍ كثيرة، ومن الآداب التي دل عليها الشرع مثلًا في مجالس الدرس: أن تكون الحلقة مجتمعةً غير متفرقة، فلو قلنا: لمن في الخلف: تقدموا إلىٰ الحلْقة، فإن هذا هو أدب الشريعة، لم يكن هذا تشددًا.

ومن أدب الشريعة في الكتاب: رفعه عن الأرض، فإذا قلنا لواضعٌ كتابه علىٰ الأرض: إن هذا خلاف حُكم الشريعة والأدب معه، لم يكن هذا تشددًا، وإذا قلنا: لرجلٍ يمد رجليه في مجالس الدرس إن هذا خلاف أدب الشريعة في الدرس لم يكن هذا تشددًا؛ ولكن لما قل الأخذ علىٰ أيدي المتعلمين في هذا الباب صار الأمر مهجورًا صار ذلك معدودًا في التشدُّد، وقد قال بعض السلف: «بالأدب تنال العلم»، فلا يُنال العلم إلا بأدب، ومهما جمع الإنسان نفسه بقوة حفظ، وجودة فهم، ولكنه قليل الأدب مع العلم، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يجعل هذه الأمانة في قلبه أبدًا.

قد رأينا هذا كثيرًا في من كان صاحبًا لنا في الطلب فتجد له من الأحوال مع مشايخه خلاف مقتضىٰ الأدب، كالإكثار من الكلام في المجلس، أو تعصبهم بغمز ولمز في أثناء حديث الشيخ، أو الإزراء عليهم بعد الخروج بأنه ذكر أحاديث ضعيفة، واقتصر علىٰ مضمون ما في الكتاب دون ترجيحٍ بين الأقوال، أو بأن هذا الشيخ لا عناية له بحفظ المتن، كما ينبغي، وهلم جرّا.

فجره سوء أدبه إلىٰ تضييع ما معه من علم، وقد كان بعض من كان يحضُر المجالس التي ندرس فيها عند المشايخ من يتعقُّب العلماء فيقول قال: وقلت، وهو بعد لم يظهر شعر وجهه، ولا شك أن مثل هذا جراءة تنمُّ عن قلة أدب، لأن طالب العلم حاله مع حال العلماء كالابن مع آبائه، ولا ريب أنك إذا واجهت أباك بقولك: أقول أنا كذا وكذا بعد أمره هو، كان ذلك من سوء الأدب معه.

فينبغي أن يجتهد المعلمون في بذل النصح لطلبة العلم، وأن يصبروا علىٰ ما قد يلحقهم من الأذىٰ بسبب جفاء أولئك الطلبة، أو تقصيرهم، وأن يجتهدوا في سؤال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرزق هؤلاء المتعلمين العلم النافع، وأن تصدُق نياتهم في رجاء أن يخرج من هؤلاء الطلبة من يكونوا أعلمَ منهم، وإذا كان المعلم يكره انصرافَ مُتعلمه إلىٰ شيخ آخر أو لا يحب أن يترقىٰ متعلِّمه إلىٰ علم أكثر مما هو عليه، فإن مثل هذا المعلِّم لا يوفق في تعليمه، فيكون الانتفاع به قليلًا، فإنَّ النية ببركتها تُكثر المعارف والعلوم عند المعلم والمتعلِّم، وبضعفها تقل تلك العلوم عند المعلم والمتعلم.

ومثل هذه الأمور قد توجد بالذوق والوجد أكثر مما توجد بالحس والعرفان الظاهر؛ لأن العلم شيء لطيف، يسري بين الأرواح، وعلىٰ قدر صفاء هذه اللطافة يكون نفع العلم، وإذا كانت هذه اللطافة مشوشةً فإن العلم يتكدَّر، وأشبه شيء بهذه الحال المرآة فإن أحدنا إذا انتصب أمام مرآة وكانت صافيةً كانت صورته جميلة ظاهرةً لا يقنصها شيء، وإذا كانت المرآة ملطخةً بشيء من الأساوخ أظلمت تلك الصورة، وكذلك العلم في القلب، إذا كان القلب نظيفًا كان العلم فيه قويًّا، وإذا كان القلب ملطَّخا كان العلم فيه ضعيفًا.

وليعلم المعلم أن طلابه هم ورَّاث علمه، كما أن أبناءه هم وراث دنياه، ولا ريب أن وراثة الدين أعظم من وراثة الدنيا، وإذا كان الإنسان يهتمّ بتحصيل الدنيا وإخلافها لمن بعده فينبغي له أن يهتم بتحصيل الدين، وإخلافه لمن بعده، لأن حصول الأجر في ذلك أكبر وأعظم.

فإن مما يبقىٰ للإنسان من بعده العلم النافع، ومن العلم النافع: ما يكون منقولًا علىٰ أيدي أصحابه وتلاميذه.

وينبغي علىٰ المعلم أن يُرغب المتعلمين بكل طريق، ويزيِّن لهم العلم، ويُحببهم فيه، ويُشبِّعهم عليه، وأن يتخذ كل وسيلةٍ موصلةٍ إلىٰ ترسيخ العلوم في قلوبهم، وإلىٰ تتميم السير فيه، فإنهم إذا وجدوا مثل هذه المعاني نشطوا في تحصيل العلم، وإذا وجدو أضدادها فتروا عن تحصيل العلم، وأنا أضرِبُ مثلين في ذلك:

أحدهما: ما كان يفعله العلامة طاهر بن صالح الجزائري أحد أعيان القرن الماضي ويقوله لأصحابه: إن جاءكم أحدٌ يريد أن يتعلم النحو في ثلاثة أيام، فقولوا له: يمكن، فإنه ربما أحب النحو فأتم طلبه، فهو يزيّن لأصحابه إذا جاء رجلٌ لا يعرف النحو ويريد مُدة ثلاثة أيام في تعلمه، فإن المعلم يزين له ذلك ويُرغبه ويهوِّنه عليه، ويمده بكلياته وقواعده ما يحصُل به محبةٌ لهذا الفن، فإن نفسه عند ذلك تترقىٰ

همته لطلب ما بقي منه، وتطلب الزيادة فيه.

ويُقابل هذا مثالٌ آخر: أن تجيء إلىٰ شيخٍ وتقرأ عليه فنًا من هذه الفنون فيباشرك بقوله: إن هذا فنٌّ صعب لا يستطيعه إلا القليل من الناس، وهذا شيءٌ كنا نسمعه في هذه البلاد من بعض من يُدرِّس القراءات، بأن علم القراءات فيها قد طُوي منذ مُدة، وإن كانت هذه البلاد -بحمد الله- فيما سلف محلًّا لهذا الخلف خلافًا لما يتوهمه الناس.

وكان ممن يقرأ القراءات السبع: العلامة عبد الرحمن بن حسن، وتلميذه عبد الله بن عبد الرحمن بن أبا بُطين؛ بل كان الشيخ أبا بطين مفتي البلاد كان يصلي صلاة العشاء كل ليلةٍ برواية.

ولهم في ذلك تصانيف، لكنها لا زالت مخطوطة، كالمعدود لهم رغم أنه قد ضاع شيء كثير منها بسبب الهجمة التي وقعت علىٰ هذه البلاد، يوجد أكثر من سبع رسائل فيما يتعلّق بعلوم التجويد والقرآن لعلماء الدعوة الإصلاحية، ويوجد في فتاواهم أضعاف هـٰذا؛ لكن لما ضعُف عند المتأخرين من أهل العصر واحتيج إلىٰ غير أهل هذه البلاد صار فيهم من يُصعِّب هذا العلم علىٰ الطلبة، ويقول: إن هذا علم صعب، مع كون هذا العلم علمٌ يسير؛ لأنه يرجع إلىٰ الصوتيات، وإدراك الصوتيات ليس بأشق من إدراك الشرعيات والعقليات، ففي العلوم الشرعية والعقلية أثقل علىٰ النفس من العلوم الصوتية، ولذلك فإن نحو العلوم الصوتية يستطيعه أكثر الناس، ويحذِقون فيه، وأما نقل العلوم العقلية والشرعية فهذا لا يستطيعه إلا قلّة، ولا أدل علىٰ ذلك من أن بعض العجماوات كأنواع الطيور تستطيع أن تُقلد صوت الإنسان، ممّا يدل علىٰ سهولة مثل هذه الفنون إذا أُخذت بطريقها الذي ينتفع به الإنسان.

والمقصود: أنه ينبغي علىٰ المعلِّم أن يُحبب العلوم إلىٰ الطلبة، وأن يُشجعهم علىٰ أخذها، وأن يوجههم إلىٰ الكيفية التي ينالون بها تلك العلوم، ولا يمنع إذا عرَف من فهم طالب أنه لا يدرس فنًّا أن يحمله علىٰ فنٍ آخر يرىٰ أنه يستطيعه، فإن ذلك من النُّصح له.

وعلىٰ المُتعلم أن يوقر معلمه، ويتأدب معه حسب ما يقدر عليه لما له من الحق العام والخاص:

أما العام: فإن معلم الخير قد استعد لنفع الخلق بتعليمه وفتواه، فحقُّه علىٰ الناس حق المحسنين، ولا إحسان أعظم وأنفع من إحسان من يرشد الناس لأمر دينهم ويعلمهم ما جهلوا، ويُنبههم لما عنه غفلوا، ويحصُل بسبب ذلك من الخير وانقماع الشر، ونشر الدين والمعارف النافعة، ما هو أنفع شيءٍ للموجودين، ومن أتىٰ من بعدهم من ذريتهم وغيرهم.

فلولا العلم كان الناس كالبهائم في ظلمة يتخبّطون، وفي غيهم يعمهون، فهو النور الذي يُهتدىٰ به في الظلمات، والحياة للقلوب والأرواح والدِّين والدنيا.

والبلد الذي ليس فيه من يبيِّن للناس أمور دينهم ويرشدهم لما ينتابهم مما هم مضطرون إليه لا خير في الإقامة فيه.

فمن كان هذا إحسانه وأثره كيف لا يجب علىٰ كل مسلم محبّته وتوقيره، والقيام بحقوقه.

أما حقُّه الخاص علىٰ المتعلم: فلما بذله من تعليمه، والحرص علىٰ ما يرشده ويوصله إلىٰ أعلىٰ الدرجات، فليس نفع الآباء والأمهات نظيرًا لنفع المعلمين والمربِّين للناس بصغار العلم قبل كباره، الباذلين نفائس أوقاتهم، وصفوة أفكارهم في تفهيم المسترشدين بكل طريقٍ ووسيلة يقدرون عليها.

وإذا كان مَنْ أحسن إلىٰ الإنسان بهديةٍ مالية ينتفع بها، ثم تذهب وتزول، له حقٌّ كبيرٌ علىٰ المحسن إليه، فما الظن بهدايا العلم النافع الكثيرة المتنوِّعة؛ الباقي نفعها ما دام حيًّا، وبعد مماته، المتسلسل بحسب حال تلك الهدايا فحينئذٍ يعرف حقَّه ويوقِّره ويحسن الأدب معه.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الجملة من الأدب اللازم في المتعلِّم أن يوقر مُعلمه ويتأدب معه حسب ما يقدِرُ عليه من الأدب، لما للمعلم الحق العام والخاص.

ثم بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ الحقَّ العام، وألحقه بالحق الخاص، فذكر أنَّ الحق العام لكون المعلم يتصدَّىٰ للإحسان إلىٰ الناس، ونفعهم وإرشادهم، ولا إحسان أعظم من الإحسان إلىٰ الناس فيما تصلُح به أديانهم، وإذا كان التجار يوزعون الهدايا والهبات التي تصلُح بها دُنيا الناس، فإنَّ المعلمين يُفرِّقون الهدىٰ والنور الذي تستقيم به أديان الناس.

فأثر إحسانهم في الناس أعظم، ولولا نشر العلم لكان الناس في ظُلمة الجهل، والبلدُ الذي ليس فيه مُعلِّم خير يُبين للناس أمر دينهم ويُرشدهم إلىٰ ما ينفعهم لا خير في الإقامة فيه، وقد ذكر أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من أنواع الهجرة، الهجرة من بلد الجهل إلىٰ بلد العلم.

والبلد الذي لا يشتغل أهلُه بالعلم بلدٌ فيه ظُلمة؛ كالبلد الذي أهله فقراء فإن النفوس تستوحش من الفقر، وأشدُّ من هذا عند القلوب الصافية أشد من هذا افتقاد البلد للعلم؛ لأن الأول إنما هو ظُلمةٍ حسية، والثانية: ظلمة معنوية، وهي أشد.

وقد دخل سفيان الثوري بيروت فأقام فيها ثلاثًا لم يسأله أحدٌ مسألة، فقال لابن أبي روَّاد اكتري لي

يعني اطلب من ينقلني بأجر اكتري لي أخرج من هذا البلد هذا بلدٌ يموت فيه العلم.

وأما الحق الخاص، علىٰ المتعلم فلأن المعلم صرف إليه من وقته وجهده وقوته وقريحته ما يفتح به أبواب الفَهم له، وبذل له من نفائس العلم ما يرجو أن يكون مُرشدًا له ونافعًا له في الدنيا والآخرة.

وما أُهدي إلىٰ أحدٍ هديةً أعظمُ من كلمة الخير، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

والمُعلم يبذل كلمة الخير هديةً للمتعلِّم عندهم، فهذا يوجب أن يكون بذلك المعلم حقًّا خاصًّا، كما أن الإنسان إذا أُعطي شيئًا من الدنيا صار قلبه منصرفًا إلىٰ تعظيم من وهب له الدُّنيا، فانصراف القلب إلىٰ تعظيم من وهب له معارف فيه أحق وأولىٰ.

ولا يخرج عن إشارته وإرشاده، وليجلس بين يديه مُتأدِّبًا، ويظهر غاية حاجته إلىٰ علمه، ويدعو له حاضرًا وغائبًا، وإذا أتحفه بفائدة وتوضيح لعلمٍ، فلا يظهر له أنه قد عرفه قبل ذلك، وإن كان عارفًا له؛ بل يُصغي إليه إصغاء المتطلِّب بشدة إلىٰ الفائدة.

هذا فيما يعرفه، فكيف بما لا يعرفه، ولهذا كان هذا الأدب مُستحسنًا مع كل أحدٍ في العلوم والمخاطبات في الأمور الدِّينية والدنيوية.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا من الآداب التي تلزم المتعلم ألا يخرج عن إشارة الشيخ وإرشاده، فإذا طلب رأيًا من الشيخ وإرشادًا في أمر من الأمور ثم أشار عليه الشيخ بما ينبغي أن يفعله في ذلك الأمر ولا سيما في الصناعة العلمية فإن من الأدب اتِّباع رأيه، وليحرص علىٰ امتثال ما ينبغي من جلسة العلم بين يديه بأن يجلس متأدبًا ويُظهر حاجته إلىٰ علمه، ورغبته فيما عنده، ويدعو له حاضرًا وغائبًا، وإذا ألقىٰ إليه فائدةً هي مُتقرِّرة عنده من قبل فلا يُبادره بقوله: أعلم ذلك، أو قد قرأت ذلك؛ بل يستزيده من الإفادة، فإن في طلب الزِّيادة زيادة إفادة، فقد تكون عارفًا بتلك الفائدة؛ لكن لا بتمامها، فيزيدك من المعاني ما يُتمِّم الفائدة التي تحفظها بين جنبيك، وعلىٰ قدر قوة الإقراء يكون حُسن الإلقاء، فكلما كان الطالب مُحسنًا إلىٰ مُعلمه كان ذلك إمدادًا للمعلم بالاجتهاد في إمداد المتعلم بما يُريده من العلم.

وإذا أخطأ المعلِّم في شيءٍ فلينبهه برفقٍ ولطفٍ بحسب المقام، ولا يقول له: أخطأتَ، أو ليس الأمر كما تقول؛ بل يأتي بعبارةٍ لطيفةٍ يدرك بها المعلم خطأه من دون أن يتشوش قلبه، فإن هذا من الحقوق اللازمة، وهو أدعىٰ للوصول إلىٰ الصواب، فإن الرد الذي يصحبه سوء الأدب وانزعاج القلب يمنع من

تصور الصواب، ومن قصده.

وكما أن هذا لازمٌ علىٰ المتعلم فعلىٰ المُعلِّم إذا أخطأ أن يرجع إلىٰ الحق، ولا يمنعه قولٌ قاله ثم رأىٰ الحق في خلافه من مراجعة الحق والرجوع إليه، فإنَّ هذا علامة الإنصاف والتواضع للحق، فالواجب اتباع الصواب سواءٌ جاء علىٰ يد الصغير أم الكبير.

ومن نعمة الله علىٰ المعلم أن يجد من تلاميذه من يُنبِّهه علىٰ خطئه، ويُرشده إلىٰ الصواب، ويزول استمراره علىٰ جهله، فهذا يحتاج إلىٰ شكر الله ثم إلىٰ شكر من أجرىٰ الله الهدىٰ علىٰ يديه مُتعلمًا أو غيره.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا من الأدب المتعلّق بالخطأ الذي يبدر من المُعلم ويصدر عنه إذا أخطأ في شيءٍ من العلم فتبين للمتعلم خطؤه وتحقق من ذلك فإنه ينبهه بنصحٍ ولطف، ولا يُبادره بقوله: (أخطأت) أو أن يقول: ليس الأمر كما تقول، أو أن يقول: وافقت أهل البدع، أو أشباه هذه المقالات، بل يأتي بعبارةٍ لطيفة يُدرك بها المُعلم خطأه من دون أن يتشوش قلبه؛ فإن هذا أرعىٰ بحقه، وأعظم في حفظ حُرمته، وهو أدعىٰ للوصول إلىٰ المقصود من إلقاء الصواب، ومنع المعلم من اللجج ودخول قلبه في الكبرياء أو غيرها.

ويكون لهذا المتعلم الأجر في إحسان أدبه مع مُعلمه حتىٰ يقبل الحق الذي عرضه عليه إذا تحقق كون ذلك خطأً، أما مع عدم التحقُّق فينبغي له أن يتلطف أكثر، فإذا عرض شيء يتلجج معرفتك به فلا تجزم بأن ما ألقي إليك خطأٌ، أما إذا تحققت فعند ذلك فاشرع في التلطف إلىٰ المُعلم بنقله إلىٰ الحق.

وذكر أن هذا الأمر في التلطف في عرض الحق علىٰ المعلم وتنبيهه إلىٰ خطئه، أنه كما يفعل المتعلم ذلك ويكون لازمًا عليه، فإن الأدب اللازم علىٰ المُعلم أن يرجع إلىٰ الحق، ولا يمنعه قولٌ قاله ثم رأىٰ الحق خلافه عن أن يرجع عنه؛ فإن أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم رؤوس العلماء ربما قال أحدهم قولًا، ثم رجع عنه أو أمسك عنه لما تبين له خلافه، إما علىٰ وجه الإطلاق، أو علىٰ وجه التقييد، وهذا يدل علىٰ قوة إيمانهم، وكمال علومهم، فإن الواجب علىٰ الإنسان أن ينكفّ عن الباطل إلىٰ الحق، وعن الخطأ إلىٰ الصواب، سواءً جاء ذلك علىٰ يد صغيرٍ أو كبير، أو عزيزٍ أو حقير، فإن المقصود هو الوقوف علىٰ الحق، وإنما يجلس المعلمون والمتعلمون لمعرفة الحق.

فإذا عُرف الحق عن طريق المتعلم كان هذا هو المقصود في المجلس.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أن من نعمة الله علىٰ المُعلم أن يجد من تلاميذه نبهاء يميزون خطأه، ويُرشدونه إلىٰ الصواب كيلا يتمادىٰ في جهله، ويبقىٰ علىٰ خطئه، وهذه نعمةٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ المعلم ينبغي له أن يشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها، ثم يشكر من أجرىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الهُدىٰ علىٰ يديه من المتعلِّمين أو غيرهم.

ومن أعظم ما يجب علىٰ المعلِّمين: أن يقولوا لما لا يعلمونه: الله ورسوله أعلم.

وليس هذا بناقصٍ لأقدارهم؛ بل هذا مما يزيد قدرهم، ويُستدل به علىٰ دينهم، وتحرِّيهم للصواب.

وفي توقُّفه عما لا يعلم فوائد كثيرة:

منها: أنَّ هذا هو الواجب عليه.

ومنها: أنه إذا توقف وقال: لا أعلم، فما أسرع ما يأتيه علم ذلك إما من مراجعته، أو مراجعة غيره، فإن المتعلم إذا رأىٰ مُعلمه توقف جدَّ واجتهد في تحصيل علمها، واتحاف المعلم بها، فما أحسن هذا الأثر.

ومنها: أنه إذا توقّف عما لا يعرف، كان دليلًا علىٰ ثقته وإتقانه فيما يجزم به من المسائل، كما أن من عُرف منه الإقدام علىٰ الكلام فيما لا يعلم كان ذلك داعيًا للرَّيب في كل ما يتكلم به، حتىٰ في الأمور الواضحة.

ومنها: أنَّ المُعلم إذا رأىٰ منه المتعلمون توقفه عمّا لا يعلم كان ذلك تعليمًا لهم وإرشادًا إلىٰ هذه الطريقة الحسنة، والاقتداء بالأحوال والأعمال أبلغ من الاقتداء بالأقوال.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة: أن من الأدب اللازم للمُعلمين: أن يقولوا لما لا يعلمونه: (الله ورسوله أعلم).

وقد اختلف أهل العلم في إطلاق هذه الجملة بعد وفاة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالصحيح جواز إطلاقها؛ لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن كان ميتًا فهو أعلم منا بشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلو قيل: ما حكم من صلىٰ وترك سجدة؟ فقال المُجيب: الله ورسوله أعلم، كان حقًّا لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أعلمنا في الأمور التي تتعلّق بالشرع.

أما الأمور الكونية فلا يجوز فيها أن يُقال: الله ورسوله أعلم كأن يسأل سائل: هل أقبل علينا غيم؟ فيقول: الله ورسوله أعلم، فإن هذا غلط؛ لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلم المقادير التي تكون بعد موته

صلوات الله وسلامه عليه.

وأما في الأمور الشرعية فإن ذلك يُقال، وهذا القول من المعلم عند ملاقاة سؤالٍ لا يعلم جوابه، يدل علىٰ فوائد كثيرة:

منها: أن هذا هو الواجب عليه، فلا يجوز للإنسان أن يدَّعي علم ما لا يعلم، فإنه آثمٌ بهذا الادعاء.

ومنها: أنه إذا توقف وقال: لا أعلم، نشأ من ذلك أن يفتح الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له باب العلم بذلك المجهول بركةً لجوابه لا أعلم، فيحمله ذلك علىٰ المراجعة والبحث مع غيره من المعلمين.

كما أن المتعلم كما يجتهد مُعلمه في تحصيل هذا المجهول، فيكون ذلك أيضًا حاملًا للمتعلم علىٰ طلب الزيادة من العلم.

ومنها: أنه إذا توقف عما لا يعرف كان دليلًا علىٰ ثقته وإتقانه فيما يجزم به من المسائل، كما أن من عُرف منه الإقدام علىٰ الكلام فيما لا يعلم كان ذلك داعيًا للريب في كل ما يتكلم به حتىٰ في الأمور الواضحة، فمن دلائل رسوخ المعلم أن يكون من علمه قوله: لا أعلم، فإن الرجل إذا هجر هذه الكلمة أُصيبت مقاتله، كما روىٰ جماعةٌ من أهل العلم عن محمد بن عجلان أنه قال: إذا ترك الرجل لا أدري أُصيبت مقاتله.

ومن لطيف التقدير الإلهي أن هذا الأثر جاء مسلسلًا برواية الأئمة الثلاثة فرواه أحمد عن الشافعي عن مالك عن محمد بن عجلان قال: «إذا ترك الرجل لا أدري أُصيبت مقاتله» تحقيقًا لكون هذا الأصل راسخًا عند رؤوس العلماء، وهم الأئمة المتبوعون الثلاثة من أصحاب المذاهب المشهورة مالكٍ والشافعي وأحمد رَحِمَهُمُٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

ومن فوائد ذلك: أن المعلم إذا رأىٰ من المتعلمين توقفه عما لا يعلم كان ذلك إرشادًا لهم إلىٰ هذه الطريقة، فينشأ في قلوب المتعلمين وجوب كسر أنفسهم عن انتقاء جواز العلم في كل شيء؛ بل تعتاد نفوسهم القول بلا أعلم فيما لا يعلمه، فيكون بذلك تأديبًا لهم.

❀❀◊❀❀

وممّا يُعين علىٰ هذا المطلوب: أن يفتح المعلم للمتعلمين باب المناظرة في المسائل والاحتجاج عليها، وأن يكون القصد واحدًا وهو اتباع ما رجحته الحُجة والأدلة، فإنه إذا جعل هذا الأمر نصب عينيه، وأعينهم تنوّرت الأفكار، وعُرفت المآخذ والبراهين، واتُّبعت الحقائق، وكان القصد الأصلي وتوابعه: معرفة الحق واتباعه.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة أن مما يُعين علىٰ هذا المطلوب وهو الوصول إلىٰ الحق في حق المعلم والمتعلم أن يجتهد المعلم في فتح باب المناظرة في المسائل والاحتجاج عليها للمتعلمين، ومثل هذا: أن يُلقي إليهم المسائل ويرغّبهم في الإجابة عنها، لتعتاد أذهانهم كيفية التفهم، ويجعلوا لهم حظًّا من رياضة العقل بنقلهم إلىٰ غوامض العلم، بما يُنشئ في عقولهم طلب تصحيح الفهم، ومن حضر دروس العلامة محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ رأىٰ هذا عادةً جاريةً في تعليمه.

فكثيرًا ما كان يسأل الطلبة، ثم يسمع أجوبتهم، ثم يقول: إن من قال كذا خطأ، ومن قال كذا خطأ، ثم يبين لهم الصواب مُفصلًا، فيكون في التفصيل بعد إلقاء السؤال عليه ترقيةً لأذهانهم في ملاحظة الجمع والفرق بين المسائل؛ لأن ملاحظة الفرق والجمع بين المسائل ينشأ منه التفصيل الذي هو من أعظم أصول فَهْم العلم.

❀❀◊❀❀

والحذر الحذر من التعصب للأقوال والقائلين، وهو أن يجعل القصد من المناظرة نصْر القول الذي قاله، أو قاله من يعظِّمه، فإن التعصب مذهب للإخلاص، مزيل لبهجة العلم، معمٍ للحقائق، فاتح لأبواب الخصام، والحقد، كما أن الإنصاف هو زينةُ العلم وعنوان الإخلاص والنصح والفلاح.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من الآداب اللازمة في العلم للمعلمين والمتعلمين: الأخذ بالإنصاف، والحذر من التعصب؛ لأن العصبية في العلم مُفارقة للإخلاص، والإنصاف دليلٌ عليه، فإذا كان الرجل يتعصّب لمعلمه أو كان المُعلم يتعصّب للمتعلمين عنده، أو كان تعصبهم لمذهبٍ أو طريقة أهل بلدٍ، أو إقليم، كان ذلك دليلًا علىٰ تشوه النية عندهم، وانصرافها إلىٰ ملاحظة حقِّ الخلق، ولا تكون النية خافيةً حتىٰ تكون خالصةً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكلما وجد التعصب في النفوس كلما كانت علوم أصحابها قليلةً؛ لأن التعصب دال علىٰ جمود الفكر، وجامد الفكر لا يخرج من قلبه تحقيقٌ ولا ترجيح مبنيٌّ علىٰ أصولٍ صحيحة، ولهذا فإن الذين يأخذون علىٰ أنفسهم بملازمة الإنصاف، ويحذرون من التعصُّب هم [يأخذونها] علىٰ طريق السلامة، ويفتحون لها مشارع الاجتهاد، ويُقررون أفكارهم من أن تكون مُقيدةً لقول شيخ، أو طريقة أهل بلد، أو تقلد مذهب إمام متبوعٍ دون خروج عنه بالكلية، حتىٰ تهجر أدلة النقل من القرآن والسنة تحت مطرقة التعصب.

❀❀◊❀❀

وليحذر من طلب العلم للأغراض الفاسدة والمقاصد السيئة من المباهاة، والمماراة، والرياء، والسُّمعة، أو أن يكون له وسيلةٌ إلىٰ الأغراض الدنيوية والرئاسة، فليست هذه حال أهل العلم الذين هم أهله في الحقيقة، ومن طلب العلم واستعمله في أغراضه السيئة أو رياء أو سمعة فليس له في الآخرة من خلاق.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من الآداب اللازمة للمعلم والمتعلم الحذر من طلب العلم لأغراض فاسدة ومقاصد سيئةٍ من مُباهاة ومراءاةً، ورياءٍ، وسمعةٍ أو توصل إلىٰ منصب أو رئاسة دنيوية، فإن طلب العلم لأجل هذه المقاصد الخسيسة ليس هو طريق الشرع، فإن العلم لا يُطلب لأجل الدنيا، وإنما يُطلب العلم لأجل الآخرة، ومن طلب العلم لأجل الدنيا لحقه النقص في الدنيا والآخرة، ومن طلب العلم لأجل الآخرة سعد في دُنياه وآخرته.

فينبغي أن يجتهد المعلم والمتعلم في تطهير القلب من هذه المقاصد السيئة، وأن يعيد كل واحدٍ منهم النظر بين فينة وفينة إلىٰ قلبه، وأن يتدارك ما يتسلل إلىٰ هذا القلب من التفاتٍ إلىٰ شيءٍ من هذه المقاصد، فإن هذه المقاصد قاذورات إذا حطت علىٰ الجوهرة زهّدت فيها، بل ربما إذا تكاثرت هذه القاذورات أفسدت تلك الجوهرة فانقلبت من جوهرةٍ إلىٰ فردٍ من أفراد المزبلة التي لا تستحق حتىٰ المرور عليها.

ومن أعظم ما يتعين علىٰ أهل العلم: الاتصاف بما يدعو إليه العلم من الأخلاق، والأعمال، والتعليم، فهم أحق الناس بالاتصاف بالأخلاق الجميلة، والتخلي من كل خلق رذيل، وهم أولىٰ الناس بالقيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، وترك المحرمات لما تميزوا به من العلم والمعارف التي لم تحصل لغيرهم؛ ولأنهم قدوة للناس في أمورهم، ولأنه يتطرق إليه من الاعتراض والقوادح عندما يتركون ما يدعو إليه العلم أعظم مما يتطرق إلىٰ غيرهم، وأيضًا فكان السلف يستعينون بالعمل علىٰ العلم؛ فإن عمل به استقر ودام، ونما وكثُرت بركته، وإن تُرك العمل به ذهبت أو عُدمت بركته، فروح العلم وحياته وقوامه إنما هو بالقيام به عملًا وتخلقًا، وتعليمًا ونُصحًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من أدب العلم عند أهله أن يتخلقُوا بالأخلاق الجميلة، وأن يتحلَّوا بالأعمال الفاضلة التي يُرشد إليها العلم، وأن يتنزّهوا عن مساوئ الأخلاق ومنكراتها التي لا يليق بأصحاب العلم الرُّكون إليها، ومواقعتها؛ لأن العلم يُرشد صاحبه إلىٰ كل جميل، ويُحذِّره من كل

مستقبحٍ مُسترذل، فإذا كان طالب العلم صادق اللصوق به حريصًا علىٰ الانتساب إلىٰ أهله، فإن صدق الانتساب إنما يتحقق لملازمة طريقة أهله من حُسن الخُلق، والأعمال الفاضلة الزاكية.

ثم إن للعمل بالعلم حفظًا له، وقد كان السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يستعينون بالعمل علىٰ حفظ العلم، كما جاء هذا عن وكيع بن الجراح وغيره؛ لأن الإنسان إذا عمل بالعلم الذي تعلمه نما ذلك العلم، وزاد وكثُرت بركته، فإذا تعلم الإنسان ذِكرًا من أذكار الصباح أو المساء، ثم حرِص علىٰ العمل به، بقي هذا العلمُ في قلبه راسخًا حافظًا له وأعانه علىٰ ذلك بركةُ عمله بالعلم.

ينبغي سلوك الطريق النافع عند البحث تعلمًا وتعليمًا، فإذا شرع المعلم في مسألةٍ وضّحها، وأوصلها إلىٰ إفهام المتعلمين بكل ما يقدر عليه من التعبير، وضرب الأمثال، والتصوير والتحرير.

ثم لا ينتقل منها إلىٰ غيرها قبل تحقُّقها، وتفهيمها للمتعلمين، ولا يدع المتعلمين يخرجون من الموضوع الذي لم يتم تقريره إلىٰ موضوعٍ آخر حتىٰ يحكِموه ويفهموه، فإن الخروج من موضوع إلىٰ غيره قبل الانتهاء منه يشوش الذهن، ويحرم الفائدة كما تقدم ويَخلُط المسائل بعضها ببعض.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة من الأدب الذي ينبغي لزومه سلوك الطريق النافع عند البحث تعلُّمًا وتعليمًا، فينبغي أن يجتهد المُعلم في الأخذ بالطريق الأوفق الأنفع إلىٰ أذهان الطلبة مما يمكنهم من فهم العلم الذي سوق إليهم، ويتخذ كل وسيلةٍ تُعينه علىٰ ذلك من انتقاء الألفاظ المعبرة عن ذلك العلم، وضرب الأمثال المسهلة لتصوره وتحرير مشكلاته حتىٰ يكون بينًا واضحًا، ولا ينتقل من مسألةٍ ألقاها إليهم، إلىٰ مسألةٍ أخرىٰ قبل أن يتحقق من فهمهم تلك المسألة الأولىٰ، ولا يُخرجهم من مقصدٍ علمي إلىٰ مقصدٍ آخر حتىٰ يُحسنوا ما سبق، لأنه إذا اجتمع في نفوسهم ما لم يستقر فيها، فإن ذلك يؤدِّي إلىٰ تشوش العلوم فيها، فيخرج المتعلِّم من باب النون الساكنة والتنوين مثلًا إلىٰ باب النون الساكنة وهو لم يُتقن أحكام الأولىٰ، فيبقىٰ علمه مشوشًا في هذا وذاك.

ولا ينبغي أن يُغادر المُعلِّم بابًا أوضحه لأصحابه وتلاميذه حتىٰ يفهموه، لا سيما إذا صارت الأبواب يُبنىٰ بعضها علىٰ بعض، فإنه لا يمكن في علم العربية أن يفهم الإنسان باب المفعول به، وهو لا يميز الفاعل، وإذا ميز الفاعل تيسر له تمييز المفعول به، كما أنه لا يمكنه أن يميز المفعول معه وهو لم يميز المفعول به، ولهذا رتب أهل العلم، العلم في أبوابٍ متلاحقة لأنها يُبنىٰ بعضها علىٰ بعض، ولا ينبغي أن يشوش المعلم أذهان الطلبة بنقلهم من بابٍ إلىٰ باب لأن ذلك يفوت عليهم سهولة الفَهم، وقد فشا هذا

في علمين اثنين صارا صعبين بسبب هذا: وهما علم المواريث وعلم العربية.

فيأتي المتعلم ويأخذ مثلًا فرض الزوجة، ويُعلمه المعلم بأن فرض الزوجة يكون رُبعًا بشرط كذا، ويكون ثُمنًا بشرط كذا، ثم يضرب له مثالًا في مسألةٍ تشتمل علىٰ عولٍ أو ردٍّ أو مناسخةٍ أو غيرها من المسائل التي لم يتهيأ فهمه لها بعد.

فيقسم هذه المسألة، ويُخرج مال الزّوجة، ثم بكمال علمه بالفن يُخرج هذه المسألة، ويبقىٰ الطالب مشدوهًا لا يدري كيف أخذ الأب كذا، أو أخذت الأم كذا، أو وقع العول، أو وقع الرد في المسألة؛ لأنه لم يصل إلىٰ هذه الأبواب.

وكان اللائق بالمعلم أن يقول للطالب إذا علمه هذا الباب، وألقىٰ إليه مسألة فيها زوجة أن يقول له فقط: بين فرض الزوجة، والسبب الموجب لذلك الفرض، ولا يُشغله بقسمة الباقي.

وكذلك في النحو تأتي إلىٰ بعض المعلمين في أول بابٍ وهو باب الكلمة، فيشرح باب الكلمة، ثم بعد أن يشرح باب الكلمة يأتي بجملٍ فيذكر أن هذه الجُمل فيها كلمة كذا وكلمة كذا، وأن هذه الكلمة هي فعلٌ مُضارع وأن الناصب له (أنْ)، وأن هذا الموضع مما يجوز أن يكون النصب فيه بأن جوازًا أو وجوبًا في قول، فيُشغل ذهن الطالب بما لم يتهيأ له بعد، كان ينبغي أن يكون سؤاله فقط: بيِّن الكلمة في هذه الجملة وحدد نوعها مع الدليل.

فيقول مثلًا في جملة: (جاء محمد) محمدٌ كلمة، وهذه الكلمة اسمٌ ودليل الاسمية قبول التنوين، ثم يُرقيه إلىٰ ما بعدها.

والحاصل: الجواب خلاف ذلك، ولذلك ضعُفت هذه العلوم في الناس بسبب غلط المعلمين في تعليمها.

ينبغي تعاهد محفوظات المتعلمين، ومعلوماتهم بالإعادة والامتحان، والحث علىٰ المذاكرة والمراجعة، وتكرار الدَّرس، فإنّ التعلم بمنزلة الغرس للأشجار، والدرس والمذاكرة والإعادة بمنزلة السقي لها، وإزالة الأشياء المضرة لتنمو وتزداد علىٰ الدَّوام.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا من الأدب اللائق في باب العلم أن يحرص المُعلِّم علىٰ تعاهد محفوظات المتعلِّمين، وأن يُعيد عليهم ويُكرِّر ما يُلقي إليهم من الفوائد، وأن يُحرِّضهم علىٰ الحفظ والفَهم، وأن يُعيد لهم القول مرةً بعد المرة أن العلم لا يقوم إلا بحفظٍ وفَهم، ويُشجعهم علىٰ المذاكرة

والمُدارسة، ويقول لهم: إنَّ الذي يطلب العلم بلا مراجعة، لا ينتفع بما سمع في مجلس الدَّرس، وإن انتفع كان انتفاعه قليلًا.

وكذلك ينبغي للمتعلِّم العاقل أن يتخذ من أقرانه من يتعاهد معه المحفوظات، ويُدارس معه المفهومات، كي تزداد رسوخًا وثباتًا في نفسه.

وكما أن علىٰ المعلم توقير معلمه، والأدب معه، فكذلك أقرانه، في التعلم معه عليه توقيرهم واحترامهم.

فالصُّحبة في طلب العلم تجمع حقوقًا كثيرة؛ لأن لهم حق الأخوة والصحبة، وحق الاحترام لما قاموا به من الاشتغال بما ينفعُهم وينفع الناس، وهو الانتماء إلىٰ مُعلِّمهم، وأنهم بمنزلة أولاده، وحقٌّ لنفع بعضهم بعضًا.

ولهذا ينبغي ألا يدع مُمكنًا يقدر عليه من نفعِ من يقدر علىٰ نفعه منهم من تعليمه ما يجهل، والبحث معه للتعاون علىٰ الخير، وإرشاده لما فيه نفعه.

وينبغي أن يكون اجتماعهم في كل وقتٍ غنيمة يتعلم فيها القاصر ممن هو أعلىٰ منه، ويُعلّم العارف غير العارف، ويتطارحون المسائل النافعة، وليجعلوا همهم مقصورًا علىٰ ما هم بصدده، **وليحذروا من الاشتغال بالناس، والتفتيش عن أحوالهم، والعيب لهم، فإنه إثمٌ حاضر.**

والمعصية من أهل العلم أعظم من غيرهم؛ لأن الحجّة عليهم أقوم، ولأن غيرهم يَقتدي بهم، ومن كان طبعه الشّر من غيرهم جعلهم حُجةً له؛ ولأن الاشتغال بالناس يضيع المصالح النافعة، والوقت النفيس ويُذهب بهجة العلم ونوره.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من أدب العلم هنا ما ينبغي أن يكون عليه المتعلِّمون فيما بينهم، فيرعىٰ كل قرينٍ ما لقرينه من الحق؛ لأن بينهم وحدةٌ توجب رعاية الحُرمة، وهذه الصُّحبة هي صحبةٌ في أنفع مطلوبٍ وهو العلم، فينبغي أن يحفظ كلُّ واحدٍ منهم حق أخيه، وأن يعرف له قدْره، وأن يُحسن معاملته، وأن يجتهد كذلك في نفعِه ما أمكن إلىٰ ذلك سبيل، فيبذل له كتابه، وينقل له إذا غاب ما ذكر المُعلِّم، ويُعرفه بالمعلِّمين الذين لا يعرفهم، ويفتح له باب الأخذ للعلم، فإنه إذا فعل ذلك مع أقرانه بورك في علمه، وليجعل هؤلاء الرُّفقاء مقصورُ اجتماعهم مُدارسة العلم ومُطارحة المسائل النافعة، وليجمعوا همتهم عليها، ولا يشتغلوا بشيءٍ يقطعُهم عنها، كالكلام في أحوال الناس والتفتيش عن عيوبهم وغمزهم

ولمزهم، وغيبتهم، وإشاعة السوء بينهم والسُّخرية والاستهزاء بهم؛ لأن هذا من أسباب حِرمان العلم، فهذه المعاصي من أعظم المعاصي التي تلوث القلب وتنجسه فهي بمنزلة الثوب إذا اتسخ... بدنه وثوبه من نجاسة بول بل من رشاش، فينبغي له أن يُطهر قلبه من هذه القاذورات، وإذا كان وتد طالب العلم وأعظم شغله هو الكلام في فلان وفلان فإنه لا يُفلح.

وقد ذكر أهل العلم من قواعد هذا الباب: أن الرد علىٰ المخالفين مُناطٌ بالعلماء الراسخين كما ذكر ذلك ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» والشاطبي في «الموافقات»، وإذا جلس الطلبة الذين لم يبلغوا هذا القدر فأخذوا مقالة فلان، وكلٌّ يورد عليها ما شاء من القول فاشتغلوا بما ليس لهم، بل إذا لاح لهم غلط أحدٌ من أهل العلم أو غيره فليرفع ذلك إلىٰ العلماء الراسخين فإن ذمته تبرأ من هذا، وقلبه يُحفظ بمثل هذا.

واعلم أنَّ القناعة باليسير من الرزق، والاقتصاد في أمر المعيشة مطلوبٌ من كل أحدٍ، لا سيما المشتغلون بالعلم، فإنّه كالمتعيِّن عليهم، لأن العلم وظيفةٌ العمل كله أو مُعظمه، فمتىٰ زاحمته الأشغال الدنيوية، والضروريات حصل النّقص بسبب ذلك، والاقتصاد والقناعة من أكبر العوامل لخَصْر الأشغال الدنيوية، وإقبال المتعلم علىٰ ما هو بصدده.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من أدب العلم الحرص علىٰ تقنيع النفس باليسير من الرزق، والاقتصاد في المعيشة، وعدم إشغالها بما يزيد عن هذا القدر، لأن القلب إذا أُفسد بالدنيا لم يقدر علىٰ القيام بحظ العلم، وإذا زوحم العلم في القلب بطلب الدنيا شق علىٰ القلب أن يحفظ العلم الذي فيه.

وكلما طمع الإنسان بما رزقه الله وكان أمر الدنيا قليل اللصوق بقلبه كلما بورك له في دينه ودنياه، وكلما ذهب الإنسان وراء الدنيا ولا سيما المتشرعون فإنهم يُلحقون بركة دينهم ودُنياهم، وربما رأيت إنسانًا كان في مبادئ أمره مُشتغلًا بالعلم فلم يزل يلهث وراء الدنيا حتىٰ أوشك أن ينسلخ من دينه، ولذلك لم يكن الأنبياء أهل ثرىٰ، بل كان الأنبياء أهل معيشةٍ يقنعون بها دون طلب زيادة، بل كما قال الصادق المصدوق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رواه الترمذي بسندٍ صحيح: «**ما لي وللدنيا إنما إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل رجلٍ مر بشجرةٍ فقال في ظلها**» نام فيها قيلولة ثم مشىٰ منها، وأهل العلم هم ورثة الأنبياء، فينبغي أن يكونوا علىٰ هذه الحال، وإذا فُتح للإنسان من الدنيا وُرزق خيرًا منها، فإنه يتمتّع به؛ لأنه من المباح الذي أحله الله، فالمهجور المذموم هو لهف المتعلم وراء الدنيا، واشتغاله بها اشتغالًا عظيمًا فإن

ذلك يحول بينه وبين القيام بعبودية العلم.

ومن آداب العالم والمتعلم النصح وبث العلوم النافعة بحسب الإمكان، حتىٰ لو تعلم الإنسان مسألةً وبثها كان ذلك من بركة العلم؛ ولأن ثمرات العلم أن يأخذه الناس عنك، فمن شح بعلمه، مات علمه بموته، وربما نسيه وهو حيٌّ، كما أن من بث علمه كان له حياة ثانية، وحفظًا لما علمه، وجازاه الله بحسب عمله.

ذكرالمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أن من أدب العلم السعي في إيصال الخير إلىٰ الناس، فعلىٰ المعلم والمتعلم أن يجتهد في نقل ما ينقلهم إلىٰ العلم كل أحدٍ بحسبه، وإذا أقبل المتعلم من أحد من العوام .. في دينه معه علمٌ متيقنٌ منه بين له وجه الحق، وهذا في حق المعلم آكد، فيبث الخير وينشره ليزيد الخير في نفسه ويُبارك له في علمه، فإن العلم -كما تقدم- بمنزلة النفقة كلما زاد الإنسان في الإنفاق منها كلما زادت عنده.

ومن أهم ما يتعين السعي في جمع كلمتهم، وتأليف القلوب علىٰ ذلك، وحسم أسباب الشر والعداوة والبغضاء بينهم، وأن يجعلوا هذا الأمر نصْب أعينهم، وغايةً يسعون إليها بكل طريق؛ لأن المطلوب واحدٌ والقصد واحدٌ، والمصلحة مشتركة، فيحققون هذا الأمر بمحبة كل من كان من أهل العلم، ومن له قدمٌ فيه أو اشتغال أو نفع، ولا يدعون الأغراض الفاسدة تملكهم وتمنعهم من هذا المطلوب الجليل، فيحبّ بعضهم بعضًا، ويذبُّ بعضهم عن بعض، ويبذلون النصيحة لمن رأوه مُنحرفًا عن الآخر، ويبرهنون علىٰ أن الأمور الجزئية التي تدعو إلىٰ ضد المحبة والائتلاف لا تُقدم علىٰ الأصول الكلية التي فيها جمع الكلمة.

ولا يدعون أعداء العلم من العوام وغيرهم يتمكنون من إفساد ذات بينهم، وتفريق كلمتهم.

فإن في تحقيق هذا المقصد الجليل والقيام به من المنافع والمصالح ما لا يُحصىٰ، ولو لم يكن فيه إلا أن هذا هو الدِّين الذي حث عليه الشارع عليه بكل طريق، وأعظم من يلزمه القيام به أهله، ولأنه من أعظم الأدلة علىٰ النصح والإخلاص اللذين هما قُطب الدين وروحه، وإن بهذا الوصف يتصف العبد بأنه من أهل العلم الذين هم أهله الذين ورد في الكتاب والسنة من مدحهم والثناء عليهم ما لا يتسع هذا الموضع لذكره.

وفيه من تكثير العلم، وتوسعة الوصول إليه، وتنوع طُرقه ما هو مُشاهد، فإن أهل العلم إذا كانت طريقتهم واحدة تمكّن أن يتعلم بعضهم من بعض، ويعلم بعضهم بعضًا، وإذا كان كل طائفةٍ منهم منزويةً عن الأخرىٰ، مُنحرفةً عنها، انقطعت الفائدة، وحل محلها ضدها، وحصل التعصب والبغض، والتفتيش عن عيوب الطائفة الأخرىٰ، وأغلاطها، وكل هذا منافٍ للدين والعقل، ولما يتعين علىٰ أهل العلم، ولما كان عليه السلف الصالح.

فالموفَّق تجده ناصحًا لله بتوحيده، والقيام بعبوديته ظاهرًا وباطنًا، بإخلاصٍ واحتساب، وتكميل لها بحسب وسعه.

ناصحًا لكتاب الله بالإيمان بما اشتمل عليه، والإقبال علىٰ تعلُّمه، وتعلم ما يتعلق به، ويتفرع عنه من علوم الشريعة كلها.

ناصحًا لرسوله بالإيمان بكل ما جاء به من أصول الدين وفروعه، وتقديم محبته علىٰ كل محبة بعد محبة الله تعالىٰ، وتحقيق متابعته في شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

ناصحًا لأئمة المسلمين من ولاتهم وعلمائهم، ورؤسائهم في محبة الخير لهم، والسَّعي في إعانتهم عليه قولًا وفعلًا، ومحبة اجتماع الرعية علىٰ طاعتهم وعدم مخالفتهم الضارة.

ناصحًا لعامة المسلمين، يحبُّ لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويصدِّق ظاهره باطنه، وأقوالَه أفعاله، ويدعو إلىٰ هذا الأصل العظيم والصراط المستقيم.

فنسأل الله الكريم أن يرزقَنا حبّه وحب من يحبه، وحبَّ العمل الذي يُقربنا إلىٰ حبه، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب.

وصلىٰ الله علىٰ محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

قال ذلك وكتبه الفقير إلىٰ ربه

عبد الرحمن الناصر بن سعدي

ونقله من خط المؤلف الفقير إلىٰ مولاه محمد بن سليمان بن عبد العزيز آل بسام

بتاريخ الأول من ذي الحجة عام ١٤١٢هـ.

ختم المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هذه الرسالة بذكر أدبٍ عظيم ينغي إعماله بين المتعلمين أنفسهم، وبين المعلمين والمتعلمين، وبين المعلمين بعضهم مع بعض، وهو الحرص علىٰ لزوم الجماعة بجمع

الكلمة وتأليف القلوب، وحسم أسباب التفرق والعداوة والبغضاء، فإن هذا من أعظم الأصول الشرعية التي جاء بها هذا الدين، ومن تتبع دلائل القرآن والسنة وجد أن هذا الأثر نوقض في كثيرٍ من الآي والأحاديث تارةً بالأمر بالاجتماع، وتارةً بالنهي عن التفرق، وتارةً ببيان أن الاجتماع هو حال المؤمنين، وتارةً ببيان أن التفرق والتحزب هو حال الضالين، وتارةً بمدح الاجتماع، وتارةً بذمّ التفرق، وتارةً ببيان أنَّ النجاة في الجماعة، وأنّ الهلكة في الفُرقة، فكل هذه الطرائق في دلائل الشرع دالةٌ علىٰ تعظيم هذا الأصل.

وأعظم من ينبغي أن يقوم به هم المشتغلون بصناعة العلم، فينبغي أن يُحب بعضهم بعضًا، وأن يُرشد بعضهم بعضًا، وأن يكونوا متعاونين علىٰ البر والتقوىٰ، ولا يكونوا متعاونين علىٰ الإثم والعداون، وأن يحذروا من تسبب الأغمار والعوام والطُّغام إلىٰ التفريق بكلمتهم، وجمع صفوفهم بإشاعة السوء بينهم، فإن هذا خلاف ما يقتضيه الدين والعقل، وخلاف طريقة السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وكلما كان أمر أهل العلم جميعٌ في بلد كلما كان ذلك أقوىٰ لشوكتهم، وإذا كان أمرهم مُتفرقًا كان ذلك أضعف لشوكتهم.

ومن رأىٰ تاريخ الإسلام وتفرس أحوال العلماء فيه= وجد إذا كانوا في زمن مجتمعين كان أقوىٰ للحق، وإذا وقع بينهم التفرق والاختلاف والتعصب كلما (....) من المعلمين والمتعلمين من عقل هذا الأصل، وقام بما يجب عليه من توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واتباع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنصح لأئمة المسلمين وعامتهم، وكان من أهل السعادة في الدنيا والأخرىٰ نسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعلنا من أهل السعادة، وأن يزيدنا علمًا وعملًا، وأن يُبارك لنا في أنفاسنا، وأوقاتنا، وذرياتنا، وأموالنا، إنه جوادٌ كريم.

وهذا آخر التقرير علىٰ الدرس العاشر، وبه نكون بحمد الله قد قطعنا ثُلث الطريق، وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الثلث كثير»؛ ولكن المؤمن لا يشبع من خير حتىٰ يكون مُنتهاه الجنة، فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الزيادة من فضله وإنعامه.

والحمد لله رب العالمين.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد، وآله وصحبه أجمعين.